مناقشات

حول قصص العدد الماضي

بقلم مصطفى الاسمر

* * *

قد يقع القاص في شرك (الضمير الاول « الانا ») ، فينخدع بسهولة ظاهرية بادية فيه نفري بانخاذه شكلا للتعبير القصصي، لكنها في الواقع سهولة كاذبة هي كالسهل الممتنع .. فالضمير الاول في رأيي من اصعب الاساليب التي قد يستخدمها الاديب القاص للتعبير عن فكرته وعمله .. وهو اسلوب ماكر خادع بحاجة الى مهارة فائقة وحساسية فنية حتى لا ينزلق القاص الى الهاوية وتتحول القصة بين يديه مجرد سجيل مذكرات .. وكم لجأ كتاب قصة الى استعمال هذا الاسلوب لانه الاكثر اسعافا لهم ـ في التعبير عن افكارهم ـ والاضمن للتطويل وملء الصفحات فافسدوا عملهم .. يستعملونه حتى دون حاجة الفكرة له ، بل قد يكون من صالحها صياغتها باسلوب آخر يتفق ومناخها ..

وعدد مايو الممتاز من الآداب يضم ثلاث قصص تتفق فيما بينها على شيء واحد ، فهي تلتقي عند استعمالها « الانا » طريقة للتعبير عن الفكرة ـ وقبل ان نستطرد ننوه اننا لا ننكر استعمال الانا طريقة للتعبير ولكنا نرفضها كلية اذا تحولت الى مذكرات تروى ، فالقصة عمل ادبي له اسلوبه وله مميزاته ، باختصار هي شيء غير المذكرات ـ ايضا تتفق القصص الثلاث في ان اختيار كتابها « الانا » للتعبير عن الفكرة اختيار فيه توفيق كبير ، ففصة (لا أحد ، لسليمان فياض) بما يمثله بطلها لنا من احساس بالوحدة يعانيها في هذه (القريه النائيه) وبمدى ما يشعر به من غربة (تبدو لي أخبار العالم التي يحملها الراديو اخبار عالم ليس عالمي ، عالم لا انتمي اليه) فضلا عن خلو القرية نفسها من الناس ابان احداث القصة (كيف أبقى وحدي في قرية خربة ؟اخذت اعدو في الشارع مناديا من اعرف من الناس في بيوتهم ؟ ثم ناديتهم جميعا يا ناس يا عالم . ياخلق . ياهو . طرقت باب بيت القاضي وباب بيت امام المسجد . لا احد ، ذهبت الى المستوصف . الى بيت الطبيب. اعدو ، وانادي . لا احد . لا احد) اننا هنا نلحظ ان احداث القصة اجبرت القاص بل حتمت عليه استعمال الانا للاسباب المذكورة ولسبب آخر هو ان اختلاف البطل عن بقية الناس المحيطين به الى حد كبير كان من انسب الاشكال تعبيرا عن الفكرة . والشيء نفسه يقال عن (استفاقة من رجل يلهث ، للدكتور نعيم عطيه) فنحن امام انسان قد يكون مجنونا وقد تكون الظروف والاحداث المحيطة به قد جسمته لنا بصورة مغايرة للواقع المألوف ، وقد يكون ، وقد يكون ... ولكن الشيء الحقيقي اننا امام انسان غير مألوف ، غير طبيعي بالنسبة لما يحيط به (الجميع مقتنعون باني .. باني .. لا استطيع .. نظراتهم تعبر عن ذلك ..) (ذلك الذي حدث لا يمكنني وصفه . اني احتفظ به لنفسي .. عالم معكوس .. يحيا الى جانبنا .. ثريات تتدلى الى اعلى .. اشجار داكنة تنمو الى أسفل ..) (يسخرون مني ، هيه ؟ لا الى منهم احتراما ؟ ليتهم يعرفون ان روحي روح طفل يجوس هذا العالم بقلب متفتح لكل ما حوله بعينين تريدان ان ترشفا الوجود بكل الوانه وزهره وفراشانه ولعبه وحيوانه وطيره .. وخزعبلاته .) انسان كهذا هو الاقدر للتعبير عن نفسه هو الوحيد القادر على نقل ما في قلبه المتفتح وما يجول في روحه ويمور في داخله من احلام وطرح ما ينوء به ذهنه من ارهاصات ، لهذا كان اسلوب الانا هو انسب الاساليب بل هو حتمي تمليه على القاص طبيعة موجودة في البطل وفي ظروف حياته .. يبقى لنا بعد ذلك قصة (الاخذ بالثار لمحمد نفاع) وما يقال عن « استفاقة .. » يقال عن (الاخذ) فبطلها انسان عاجز .. انسان غير طبيعي، قد يكون انسان « استفاقة » انسانا طبيعي الجسد ولكنه بالقطع ليس مألوف التفكير ، ايضا انسان « الاخذ بالثار » قد يكون مألوف التفكير ولكنه ليس طبيعي الجسد (اما عندها فكنت مغلوبا لا اقدر على المشي رغم اني في السابعة من عمري) . (واجتمع العجزة في الطرقات وصعد بعضهم الى السطح ينظرون الي بشفقة شعرت بوحشة وتجسم لي المرض كأقسى ما يكون عندها شعرت حقا بالقلب)ونتيجة لاختلاله الجسدي هذا نجسدت الانا فيه هو الاخر فكانت خير اسلوب يتبع لكتابة قصة عنه ..

ولكن . هل استوت الجودة بين القصص الثلاث في استعمالها « الانا » شكلا للتعبير ؟ .... في تقديري ان لا .. فقصة « لا احد» لا تخرج عن كونها مجرد مذكرات مدرس مغترب في بلاد يتصف كل اهلها بالشذوذ ويتسم كل من يسعى للعمل فيها بالجشع والسعي وراء المال . ويكفي ان نشير هنا اقتطاعه جزءا من خطابه اليها (والقرية بعد عن الرياض ، عن اقرب مدينة ، بمائتين وخمسين من الكيلومترات «(١)» ..«(١)» من رسالة اليها) .. ولا يغفر لسليمان ان مكتوبه اليها كان الدافع اليه ظروف حياته نفسها في هذه القرية النائية لان العبرة ليست بهذا الامر وحده بل وبافتاعنا اننا لسنا امام مذكرات .. قد تكون هناك مقاطع في القصة فلتت من قبضة اسلوب المذكرات ولكن العمل ككل مغلف بروحها بل انه يبقى في النهاية اقرب الى المذكرات منه الى القصة .. مذكرات « كاميرا » تنقل ما تلقطه عدستها من صور ... صور حقيقة جميلة غير مهزوزة تكدسها الكاميرا امامنا ولا تكثفها لنا ، قد يعترض معترض ويقول انه لا ضير على الاديب الخالق ان ينقل فترة من حياته الخاصة ـ او ينقل لنا حياته كلها ـ لو اقتضى الامر في عمل ادبي قصصي ـ خاصة انه استعمل الانا اداة للتعبير ـ ونحن مع المعترض ولكنا نضيف فقط عليه ان ينبه الى انه لا يكتب هذا الجزء من حياته كمذكرات . بامكان الاديب ان يكتب عملا ادبيا كبيرا عن احداث ساعة مرت بها حياته بكل ما تحويه هذه الساعة وتحمله من علاقات بشرية ومعاناة نفسية .. فنكون امام قصة نخرج منها بشيء مختلف عن مذكرات تسجل لساعة انقضت من حياة انسان .. فارق كبير اذن بين تسجيل مذكرات عن كل ما دار وكل ما وقع في خلال ساعة زمنية وبين احداث ساعة زمنية بكل ما فيها من احتكاكات واحلام ومعاناة وعلاقات .. ولئن كان فياض قد وقع في الشرك وبأثرت قصته « لا احد » الى حد ما باسلوب المذكرات فلقد استطاع الدكتور عطية « في استفاقة من رجل يلهث » ان ينجو من الفخ ويصل الى بر الامان . فلقد عشنا مع بطل القصة ، احسسنا مأساته لاننا احسسنا به كبطل لا كمسجل ، تعاملنا مع قصة لا مذكرات تسجل لنا وقائع لا تثير في النفس الا الاعجاب بالاسلوب الادبي (.. كوة في الحائط فتحت .. لي .. رأيت منها السماء والنجوم والسحب .. وبحرا داكن الزرقة .. وافقا بعيدا .. انكببت على الماضي .. واغترفت الكثير من ذكرياتي التي لم تنج من مخليتي .. بكل تفاصيلها وابعادها . .ذكريات مضت عليها اكثر من عشر سنوات تمثلت امامي بكل واقعيتها .. تماما كما لو كنت اراها .. واعيشها من جديد .. أكانت هذه لحظات من حياتي ؟ أكانت نجوما وسحبا وبحرا .. هل حقا رأيت مثل هذه في حياتي ؟ اني اذكرها .. آه .. اجل ، اذكرها .. جيدا .. ذات مساء.. او ربما) هنا اسلوب بعيد كل البعد عن اسلوب المذكرات .. وقد تميزت قصة « استفاقة .. بخاصية بارزة لا يمكن بحال ان نغفلها عين قارىء فقد كان استعمال الفواصل والنقط شيئا من ذات القصة وعلامة من علاماتها وجزءا مكملا لها .. ولو اننا لم نراع الالتزام عند القراءة بهذه الفواصل وتلك الوقفات الممثلة في النقط لافقدنا العمل عنصرا اساسيا من عناصر جودته وخاصيته . (آه ، ما اجمل الذكريات ... اشياء .. في غير موضعها .. مثل .. قرب .. الى جوار سلم .. مثل ..زهرة .. الى جوار بصلة . مثل .. مثل .. اخضر .. الى جوار ازرق .. اشياء .. جائرة .. تبعث الشجن .. كلها .. في وسط ضبابي .. غير مقنع .) هذه الخاصية تواكبها خاصية اخرى ممثلة في تركيبات الجمل ـ سواء عند استعمال العامية او الفصحى ـ (الليلة اللي بيجي فيها انا معلماها . . ديك الليلة كنت باموت فيها ... الكلب نبح عند الباب ، والاوضة كلتها لسه امبارح كنت كنساها .. والحصيرة كنت على الارض فرشاها .. والكنبة باللحاف .. باللحاف الاخضر كنت كسياها ..) .. (تنهدت .. اشحت بوجهي .. ظلام تحت السطح .. كثيف .. كثيف .. بقايا .. بقايا ..) فالعامية في المقطع

الاول بجانب استعمال حرفي الهاء والالف في نهاية كل جمل «ها »» والتشطير في المقطع الثاني بجانب تكرار الكلمة الواحدة اكسب العمل حيوية دافقة وخرج به من قيد التسجيلية .. وفي« الاخذ بالثأر »المحمد نفاع نلمس انه بدوره تخلص من الشرك ، لكن القصة لم ترتفع باسلوب الانا الى مستوى زميلتها « استفاقة » . ولان الاعمال المروية على لسان الأنا تقيد البطل وتحدد له ما يقوله لنا وما لا يقوله في نطاق المسموع والمشاهد له فقد تحايل محمد ـ في بعض المقاطع ـ بحيل ساذجة عندما كانت الفكرة والعمل يقودانه الى ذكر وقائع بعينها لم يرها او يسمعها (وحطت رفوف العصافير على نبات السويد والقاتل والعليق ،والشحرور ينبش تحت اشجار الزعرور يفتش عن بقايا الثمر بين العفن . هكذا اتصور الان ما اقول) بالقطع كانت هناك طرق افضل غير هذه الحيلة الساذجة (هكذا اتصور الان ما اقول) كما فعل د. عطيه تارة عن طريق استعماله للنقط ، وتارة عن طريق المونولوج الداخلي .. وقد جانب التوفيق نفاع وهو يرسم لنا تلك الصوره عن المتناقضات الموجودة في الحياة (السبب ليس لانها تطحن القمح ولا رؤية نساء الاغنياء يجمعن الدقيق عن الارض والاخشاب المعلقة لعمل خبز على شكل اقراص ضيقة تطعم للكلاب مع قطعان الماشية ولا رؤية الفقراء يجمعون ذلك لانفسهم) المقطع السابق بشكله القائم فيه سذاجة تعبيرية ـ سذاجة زاد من احساسنا بها ان المقطع قداعترضناه في بداية القصة ـ شيء قريب الى هذا في قصة « لا احد » (وددت في كل اللحظات في ساعات المساء النهارية والليلية ، ان اشرب حتى اسكر ، لكن الخمور لا تأتي الى هذه القرية النجدية ، الا في زجاجات عديده ، الزجاجات في صناديق ، الصناديق محكمة الاغلاق بالمسامير وشرائط الصفيح وعلى الصناديق مكتوب في ناحية « قرآن كريم ») وقد ركز فياض في قصته على شذوذ القرية النجدية وهذا حق له ، صوره لنا في اكثر من صورة وايضا هذا حق له ولكن ان تكون كل الصور المسافة متشابهة كربونية ،لاتعطي كل صورة لنا بعدا جديدا وتكشف لنا عن اعماق كانت غائبة عنا ونحن نقرأ الصورة السابقة ففي هذه الحالة يكون الاكتفاء بصورة واحدة افضل وحذف باقي الصور فيه صلاح القصة اللهم الا ان كان القاص يقصد من وراء ذلك التطويل (هنا ، او هناك في مكان ما ، وسط حفرة، وجدوا زوجة طبيب من بلادي ملقاة كميتة ،في اغماءة طويلة والدم ينزف من بين فخذيها لم يزل قالوا انها كانت سمراء وجذابة) (هنا كان يجلس الولد الذي لا اذكر اسمه قصير وقميء وقبيح ، ينز الصديد من عينيه اعتلاه امام المسجد يوما بعد صلاة العصر في ساحة المسجد بجوار المحراب ضبطه الناس متلبسا باللواط) (اختفى احمد ذات يوم من هذا البيت كان يلعب امامه . اغروه بالحلوى ،فذهب معهم الى بيتهم المجاور لبيت ابيه ، اوبهوه بالحبال ، وكموا فمه .. ظللنا مع الكل نبحث عنه نهارا وليلة في الصباح التالي عاد احمد الى بيت ابيه. كان في السابعة من العمر . انزوى في ركن غرفة) (جاءت اخرى . شكت ان زوجها مريض طلب الطبيب ان ترسله قالت انه ان يأتي . انه مريض فقط وهي تعرف مرضه سألها عن مرضه ، فقالت انه لا يضاجعها كما كان) (في ليلة زفافي ، كان كبيرا في السن ، عقدت نكة سروالي ، دعوته ليفكها فشلت يداه ، فأخذ يجرب اسنانه ، ضغطت على عنفه بفخذي وخنقته) (ورأيت في لمحة ما حدث ، كانا عاريين من اسفل ويد كل منهما بين ساقي الاخر) يقيني ان كل هذه الصور المستهد بها رغم تعددها لم تستطع ان تضيف لنا جديدا فكانت مجرد ترديدات لا اكثر ، صدى لصوت واحد ، نغمة واحدة تتكرر برتم واحد .. قد تتفق « لا احد ، واستفاقة ..» في انهما يلتقيان عند نهاية واحدة تتفق واحداث القصتين ولكنهما تختلفان من حيث التأثير فينا فأننا نحزن ونأسى ونحن نرى امام عيوننا بطل « استفاقة » يستسلم في النهاية لقدره نتيجة كل الضغوط المحيطة ، نحزن ونشعر بالاسى يملأ نفوسنا لانه بالنسبة لنا البطل والامل (كنت سأموت .. واصبحت متأكدا من ذلك الان ، كمن يرى عوارض الطاعون على يديه .. اصبحت اعرف ان ايامي معدودة .. وان معرفة الشخص بقرب اجله يجعله يحس كأنه قد مات حقا) سيكون هذا هو موقفنا معه ولكننا سنقف موقفا حياديا ازاء بطل « لا احد » فهو عندما يسقط مع المرأة (خرجت من تحت السرير،واضأنا المصباح وسددنا ثقوب النافذة والباب فليس هناك احد ، لا احد)سقط فما اختلف في هذا عن اي انسان يعيش في القرية النجدية وابدا لن تأسى له وان تحزن لانه بالنسبة لنا ليس بطلنا . هو صفحات من مذكرات انسان عادي وابدا ليس هو البطل الذي يسعدنا صموده ويشقينا سقوطه .. وان كنا لم نحزن او نشق لسقوط بطل « لا احد » فاننا ايضا لم نفرح ولم نسعد عندما وقف مغلوب قصة « الاخذ بالثأر » (وشعرت بدم حار يجري في عروقي ، وبعصبية ونخوة في راسي ارتجفت بشدة وصرخت من قحف راسي وانا اقف لاول مرة في حياتي) صحيح قد تكون نهاية « الاخذ بالثأر » نهاية سعيدة بالنسبة للقصتين الاخريين ولكنها نهاية غير مقنعة ، كان يكفينا ان نعرف تكاتف اهل البلد على بناء مطحنة تحمل اسم جدعان لتكون مرشدنا ودليلنا على ان كل شيء قد عاد الى وضعه الطبيعي ومكانه الصحيح واستقام امره والثأر عند محمد نفاع ليس هو الثأر التقليدي ، بل هو ثأر من لون اخر ، هو ثأر يتجسد في تكاتف (اهل البلد في بناء مطحنة) فهي عنده رمز للخلاص .. هي امتلاك القرية لمقدراتها .. هي تحدي العدو والانتصار عليه أيا كان شكله .. قد تكون اسرائيل ، وقد يكون اي مغتصب ، اي ظالم ، اي قاتل، فالامر في النهاية سواء لا فرق بين الاشكال مهما اختلفت الصورة .. لهذا كان التصدي الجماعي من اهل القرية في بناء مطحنة هو الثأر المطلوب .. لان الثأر بمفهومه الفردي التقليدي لا فائدة منه ، هو تبديد للجهد ، واضاعة له وبعد به عن الهدف الحقيقي .. وان كان نفاع يرى ان الخلاص والتحرر والثأر يكمن في تكاتف اهل القرية (ابني نقوط اسامح في دمه لرأي فضل والحاضرين) فان فياضا يرى الخلاص في تلاشي الحياة من القرية النجدية ،في ضياع اهليها بعد ان بلغ الامر فيها مداه فاستحقت العقاب . .فما عادت هناك فائدة ترجى من الموجودين ، لا خير فيهم ولا امل منهم انهم بالضروة منتهون ولهذا يريد ان لا يكون أحد في القريه .. ان يمحي كل اثر للحياة فيها ، ان يندثر كل شيء هو الطلب هو الحل الامثل الوحيد .. ولكن ماذا بعد التلاشي والعدم .. لا شيء لا شيء .حتى الامل الجديد والنبت الوليد الممثل في المدرس يسقط بدوره ويضيع ويضيع ما انكره على اهل القرية النجدية .. وللقاص رأيه في هذا وهو حق له وحق لنا ايضا ان يكون لنا رأينا ولهذا نسأل : أكل اهل القرية النجدية لوطيون ، جهلة ، سفلة، مدمنو خمر هانكو اعراض ، الا يوجد فرد بينهم يشذ عن هذه القاعدة؟.. ان طبيعة الاشياء والامور لا ترى رأي فياض .. امام المسجد فاسق، القاضي فاسق ، تلاميذ المدارس فسقة ، الامير فاسق ، صانعو الخبز فسقة ، الكل منحرف ، زنديق فاسق ، الرجال والنساء والغلمان والشيوخ لا احد لا احد هكذا يرى القاص ومن هنا يجب ان لا يكون في القرية احد لا احد .. خلاص (لا احد) اذن يكمن في الفناء والتلاشي ... اذن ما هو الخلاص في « استفاقة من رجل يلهث » ان (استفاقة ..) من هذا الصنف من القصص التي نشعر ونحن نقرأها اننا نتشبع بها بافكارها ، باحداثها.. لهذا ليس فرضا ان نقول عن (استفاقة ..) انها = هذا الامر .. لانها كلها تساوي احساسنا بها بازمة انسان محاصر .. ربما .. انسان بطل يصارع ظروفه .. ربما .. له شطحاته واحلامه .. ربما .. انها باختصار تسديد كل هذه الاشياء معا بل وفق هذه الاشياء .. لكنها بالقطع واليقين احساس يملأنا ـ ونحن نقرأ النص ـ بالبطل وهو يتألم ، ويحلم ، ويفاوم ، ويتذكر (ويرهف السمع الى سنابل القمح) وشعور ، ان (بامكاني ان ادخل عقل قط لحظة تأهبه للانقضاض على عصفور ، وان اطير بجناحي بعوضة لازور مدائن بين النجوم .. وان امشي في جنازة زهره .. اننا معه وهو يحلم بالامواج تحمله (الى رمال دافئة على شطئان بعيدة) معه لانه بطل يرفض (الزحف على بطون خاوية .. بينما خلفنا كالنسور للقمم العالية ؟) وعندما يسقط بطلنا في الهوة وتضيع استفاقته فكل (من حولي في النوم يغطون) ومع هذا ينادي (هل من احد يستطيع ان يفعل لي شيئا ؟ هل يقدر ان يبذل لي عونا ؟ هل يستطيع ان يشفيني ،او حتى يعطيني جرعة تسكن المي او تخفف عني انا اموت .. والليلة مدلهمة الظلمات) نشعر به ينتهي كما شعر هو الاخر (كنت سأموت .. واصبحت متأكدا من ذلك الان) انه بطلنا الحبيس سجين غرفته المظلمة سجين قيوده المراقب في كل لحظة الاكل وفقا للتعليمات وعندما يحس بالنهاية ويسقط يكون (الكل من حوله في النوم يغطون) .

جمعية الرواد الادبية بدمياط ج . ع . م مصطفى الاسمر